الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يا بنيَّ لا تقصُصْ رؤياك على إخوتك﴾[1] الآية، فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب، أخبرت أخوته فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى: ﴿فأوحَى إلى عبدِهِ ما أوحى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وما هو على الغَيْبِ بِضَنينٍ﴾[3] أي بمتَّهم، وفي الحديث: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإن كل ذي نعمة محسود. وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: سِرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار، أقول وجوداً من أماء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمِنَ من سطوته. وقال أنو شروان: من حصّن سرّه فله بتحصُّنه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات، وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرِدْ بسرِّك لا تودَعْهُ حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. وقال كعب بن سعد الغنوي:

ولستُ بمبدٍ للرجالِ سريرَتي[4] ... ولا أنا عن أسرارِهم بسؤولُ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزَتْ ... عنه ملوكُ بني مروانَ إذ جهدُوا
ما زلتُ أسعى عليهم في ديارهم ... والقومُ في غفلةٍ بالشام قد رَقَدُوا
حتى ضربْتُهم بالسيفِ فانتبهوا ... من نومةٍ يَنْمَهَا قبلَهُم أحدُ
ومَنْ رَعَا غنماً في أرضِ مسبعَةٍ[5] ... ونامَ عنها تولَّى رَعْيَها الأسدُ

---

(١) سورة: يوسف، الآية: ٥.
(٢) سورة: النجم، الآية: ١٠.
(٣) سورة: التكوير، الآية: ٢٤.
(٤) سريرتي: ما أخفي.
(٥) مسبعة: تكثر فيها السباع.

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمتَ؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظتَ؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائرُ في الضميرِ طوَيْتُها ... نسيَ الضميرُ بأنها في طيِّهِ

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البديري[1] فقال:

إني كتمتُ حديثَ ليلى لم أبُحْ ... يوماً بظاهرِهِ ولا بخفيِّهِ
وحفظتُ عهدَ ودادِها متمسِّكاً ... في حبِّها برشادِهِ أو غيِّهِ
ولها سرائرُ في الضمير طوَيْتُها ... نسيَ الضمير بأنها في طيِّهِ

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر:

ومستودعي سراً كتمتُ مكانَه ... عن الحسِّ خوفاً أن يَنُمَّ به الحسُّ
وخفتُ عليه من هوى النفسِ شهوةً ... فأودَعْتُهُ من حيثُ لا تبلغ النفسُ

وقال قيس بن الخطيم:

أجودُ بمكنونِ التلادِ وإنني ... بسرِّي عمَّنْ سالني[2] لضنينُ
وإن ضيَّعَ الأقوامُ سرِّي فإنني ... كتومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودَعَني سرَّهُ ... لا تَرْجُ أن تسمَعَهُ مني
لم أجْرِهِ قطُّ على فكرتي ... كأنَّهُ لم يَجْرِ في أذني

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذ كان صدري به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ. قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّه بلسانِهِ ... ولامَ عليه غيرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِهِ ... فصدرُ الذي يستودعُ السرَّ أضيقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاقَ صدرُكَ عن حديثٍ ... وأفشَتْهُ الرجالُ فمَنْ تلومُ
وإن عاتَبْتُ مَنْ أفشَى حديثي ... وسرِّي عندَه فأنا الملومُ

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودِعْ سرَّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع. ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه،

---

(١) ورد في نسخ: البدوي.
(٢) سالني: أي سألني مخففة الهمز للضرورة.

فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساه، كأني لم أسمعه. وكان يقال: أحزم الناس مَنْ لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرتَ الذنوبَ يوماً لصاحبٍ ... فلستَ معيداً ما حييتَ له ذكرا
ولستُ إذا ما صاحبٌ خانَ عهدَهُ ... وعندي له سرٌّ مذيعاً له سرّا

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودعِ الأسرارَ أذْني فإنما ... تصبَّنَّ ماءً في إناءٍ مثلَّمِ

أو القائل:

ولا أكتمُ الأسرارَ لكنْ أذيعُها ... ولا أدعُ الأسرارَ تعلو على قلبي
وإن قليل العقلُ مَنْ باتَ ليلَه ... تقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنبِ

وقال آخر:

وإنَّكَ كلَّما استودَعْتَ سرّاً ... أنمُّ من النسيمِ على الرياضِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

أناسٌ أمّناهم فنمُّوا حديثنا ... فلما كتَمْنَا السر عنهم تقوَّلُوا

ولله در المتنبي حيث قال:

وللسرِّ مني موضعٌ لا ينالُهُ ... نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً، إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.